

بعض العلوم المساعدة لدراسة التاريخ:

التاريخ واحد من العلوم الاجتماعية الهامة له صلة وثيقة من حيث الموضوع والمنهج بعلوم اللغة والعلوم الاجتماعية فكل علوم اللغة والآداب والجغرافيا والاجتماع والاقتصاد وغيرها من العلوم الانسانية تحتفظ بصلة وثيقة بحقل التاريخ وفروعه يسميها المنهجيون الاوائل كاسد رستم وحسن عثمان بالعلوم الموصلة "والعلوم المساعدة للتاريخ". فما يتوفر فيها من معلومات ينفع عمل المؤرخ من ناحيتين:

(١) في إضافة معلومات متنوعة ذات صلة كبيرة بحقول المعرفة التاريخية غالباً ما تكون غير متوفرة في مصادره التقليدية.

(٢) وفي فهم واستيعاب مفردات موضوع البحث الى حد ما عن طريق التداخل الموجود بينهما.

من هنا فإن ثقافة المؤرخ- المبتدئ لا تكتمل عادة ما لم يلم في أهم خصائص هذه العلوم المساعدة ويأخذ نصيبه منها بقدر ما يتعلق باختصاصه التاريخي، عدا ما يخص سلامة اللغة التي يكتب فيها، والقدرة التي يظهرها في فهم واستيعاب النصوص المستخدمة لأغراض البحث، فلا غرابة ان اكدت عليها معاهد الدنيا التعليمية المتطورة وجعلت منها جزءاً من برنامج طلبة الدراسات العليا خلال مرحلة التدريب والتخصص في المهنة، وبسبب التشعب في العلوم المساعدة، فأنا سنعرض فقط لاهم الخصائص العامة التي تعكسها علوم اللغة والادب والجغرافيا والاجتماع على عمل المؤرخ وتخصصه بقدر ما يتعلق بينها وبين التاريخ من تداخل فيلولوجي وسوسيلوجي.

الفيلولوجي / هو دراسة النصوص القديمة / علم اللغة

سوسيلوجي / علم الاجتماع ودراسة المجتمع

اللغة والادب:

اللغة من وجهة نظر المؤرخ اداة ووسيلة لفهم النصوص المتعلقة بأعماله التاريخية، التي يستعين بمعلوماتها من أي من مصادرها، لكن أهمية اللغة للمؤرخ لا تقتصر على هذه الوظيفة الاساسية المزدوجة، بل تتوسع بتفرع المواضيع التاريخية والفترات التي تتصل بها، فمثلا المؤرخ المتخصص في حقل النظم بحاجة الى قواميس اللغة ومعاجمها ابتداء

بابن منظور (لسان العرب)

والجوهري (الصحاح)

مختار الصحاح (الرازي)

أكثر بكثير مما يحتاج الى مراجعته نظيره الذي يكتب في التاريخ السياسي لأن مؤرخ النظم يكتب عادة عن طبيعة وخصائص مؤسسات ادارية وسياسية وعسكرية تتعلق بتركيبها النظمي وتشكيلاتها ضمن دولة معينة وتتعدى مسألة المواضيع على سرد الوقائع والأحداث السياسية العائدة لها ضمن ذلك العصر، ومثل هذا النظم تدور عادة حول مفاهيم وتعابير (Terminology)، هي الاساس في فهم طبيعة وخصائص المؤسسات الادارية ككل، بما تركزه في تحليلها فيلولوجيا على معناه اللغوي والتاريخي، بحيث تساعد قواميس اللغة في اشتقاق ورسم المعنى اللغوي، بينما تضمن كتب التواريخ تقرير محتواها التاريخي.

واللغة في وظيفتها كأداة اما ان تكون اصلية او مساعدة ، وقد يحصل في حالة دراسة احدى الشعوب الاسلامية ، ان يرتبط موضوع حقل الاختصاص بأكثر من لغة اصلية ، واذا لم يكن متمكنا" منها وفي استعمالها في جوهرها فسيخيب امله في تحقيق كسب علمي يستحقه في حقله هذا ، إذ ستظل اسهاماته من جراء ذلك ناقصة في جوهرها ، اذا لم يتحرك النقاد عليها من نواحي اخرى منهجية وفنية غير مستوفية ، لفشله في تغطية ما كتب بلغات اخرى تعود الى تخصصه خاصة الحية منها ، حتى وان استعان بوسائل الترجمة من دوائر مختلفة للتعويض عن هذا النقص في ثقافته العامة ، ولأن ما سيجزم له يكون عادة محدوداً ، وفي نطاق ضيق جدا لا يحسده عليه النقاد والمتخصصين، يضاف الى ذلك ان قواعد البحث التاريخي تقضي ان يكون اعتماد الباحث للكتب الاجنبية يقتصر على لغة الاصل وليس عن طريق فرعي، وان مثل هذا الحل في الاعتماد على طريقة الترجمة لا تسمح له شخصيا بتقييم مثل هذه الدراسات (المصادر) لعدم توفر الخلفية والمعلومات اللازمة عنده، كما توفرها له القراءة المباشرة للكتاب بلغة الاصل، وما يحصل يكون له نتائج سيئة على عمله الكتابي ، فكثيرا ما يقع المؤرخون بأخطاء جسيمة من جراء هذا النقص في ثقافة المتخصص فمثلا ، لما كان مجتمع السلاجقة مكونا من ثلاثة عناصر رئيسية ، لكل منهم لغته الخاصة وعاداته الاجتماعية السائدة هم الأتراك والفرس والعرب ، فإنه في ضمن حدود هذه الدولة ، كان الأتراك السلاجقة يكونون الجزء الاكبر من الطبقة الحاكمة ، التي تضم بين مراتبهم وحدات الجيش النظامي ، ولهم كل المناصب العسكرية والادارية كالسلطنة وادارة الاقاليم ، والوظائف المتعلقة بمنصب الحاجب والشحنة ورئيس الحرس وهكذا في المقابل ، كان العنصر الفارسي الذي يتم استخدامه من قبل الأتراك - السلاجقة مسؤولا

عن عدة مناصب ادارية متداخلة في السلطنة وجدت لخدمة سلاطين السلاجقة وامرائهم يستعملون لغة الإدارة في الدولة السلجوقية خارج حدود العراق ، ثم اللغة الفارسية ،بتداولها الوزير والعميد والمستوفي وممثلي الادارات التابعة لهذه الوظائف الادارية والمالية والعسكرية ، بينما كان للسلاجقة مصالح سياسية ومالية في دولة الخليفة تدير شؤونها الادارة السلجوقية في بغداد بتوجيهات تستلهمها من مراكز كنيسابور والري واصبهان من ادارة السلاجقة الرئيسة هناك ، وتحفظ لهذه الاسباب بمراسلات ومكاتبات مع بغداد بلغة العرب طبعاً وطبقاً لذلك فقد توفرت في هذه اللغات الثلاث وثائق ومعلومات أولية هامة جدا عن تاريخ السلاجقة ونظمهم ضاع قسماً كبيراً منها ولم يصل شيئاً أساسياً منه حتى من قبل مؤرخي التواريخ العامة والمحلية، فإذا ما التزمنا بروح هذا المثل لغويا وإداريا، فإن مؤرخ السلاجقة سيصبح بأمس الحاجة الى ان يوفر التوازن المطلوب في تخصصه والتي ان توفرت يتحكم بها فهمه للنصوص الواردة بهذه اللغات وتمكنه من تاريخها لتثبيت اسس النجاح الاولية اللازمة له باستعمالها، وهذا الوضع يسري على حالات أخرى أكثر تعقيدا من السلاجقة كالمغول - الايلخانيين والجلاتريين وغيرهم حيث يصبح التحديد لها باللغات الاسيوية غير العربية شيئا واضحا وفي خلاف ذلك تبقى الدراسات قيد التطوير في هذه الحقول معتمة وعلى حالة لا يحسد عليها لدى قراء العربية، والشيء الأهم في تحديد علاقة اللغة بالتاريخ وعمل المؤرخ الكتابي هو إنها توفر مادة أولية مختلفة غير تلك التي نجدها في المصادر التاريخية المتداولة ومن غير الممكن التعويض ، عنها وواحدة من هذه الحالات كما نوهنا الحاجة التي تقوم عند المؤرخ الى قواميس اللغة ومعالجتها للقيام بأي تحليل لغوي تاريخي (Philo-historical) للمفاهيم يدور حولها موضوع النظم الاسلامية كالأقطاع من القطعية وصاحب الخبر أوالمعونة وغيرها من قضايا النظم والحضارة مما يحتم استشارة قواميس اللغة والرجوع الى مفرداتها ومن مزاياها أيضا أنها توفر مادة أولية عامة من كتب أدبية تنتمي الى تراجم الشعراء والدواوين التي تخلفت عنهم والتي لا نعثر عليها في المصادر التاريخية المألوفة أيضا، فتكون الصلة قريبة جدا بين هذه المصادر وموضوع البحث الذي يعالجه كالعلاقة التي تقوم بين ادباء وشعراء إحدى الدويلات الإسلامية والادارة التي تمثلها حيث يكون لكثير من اعضائها ارتباط بهذه الادباء عن طريق التخصص الأدبي والشعري طالما ترجع بدايات كثير من رؤساء دواوين الدولة وعمالها الى تخصصات أدبية وشعريه شاملة مثلاً ما يورده أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هجريه / ١٠٣٤م) عن شعراء وأدباء لشيوخ الإدارة السامانية والغزنوية والبويهية في يتيمة الدهر ، بينما يساعد كتاب مثل ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري ، الذي كتب في ٤٦٦ هجريه/١٠٧٤م ، خلال خلافة المقتدى بالله في التعرف على نظم مجتمعات كنظام الأتابكة الذي ساد بكثره بين السلاجقة وهكذا ، فان اللغة كعلم مساعد متصل بالتاريخ يسمح للمؤرخ فرصة التعمق في مجال دراساته لما توفره من معاجم ودواوين

وكتب ادبية نافعة في مسائل الإدارة والنظم فضلاً عن وظيفتها كواسطة للتعرف بها على الابحاث الحديثة ذات الصلة بالاختصاص أي كان نوعه.

الجغرافيا:

تمثل التصانيف الجغرافية العربية مكانة مهمة بين مجموعات المصادر التي يعتمد عليها المختصون في حقول التاريخ العربي الاسلامي خاصة في المسائل الاقتصادية والادارية والنظم لان هذه المصادر لا تزوده فقط بمادة قيمة عن مؤسسات الدولة الادارية والمالية فحسب بل تساهم في تنوع هذه المعلومات ذاتها كالتالي تتعلق بطرق الدولة الخارجية ومحطات البريد والمواقع القليمية والطبيعة والبشرية وهكذا وهذه الكتب تقع ضمن مجموعات هي:

١. كتب الجغرافية العامة أو كتب الاقاليم مثل الكتب التي تحمل أسماء البلدان **وصوره الارض لابن حوقل والمسالك والممالك للاصطخري** وغيرها من العناوين التي تعكس معرفة العرب بعلم الجغرافيا.

٢. كتب المعاجم الجغرافية ذات الصلة المباشرة بتواريخ المدن وتقسيماتها كمعجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨ م).

٣. كتب الرحلات التي تتميز بالوصف والمشاهدة المباشرة التي تشد اليها المؤرخ كرحلة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) والادريسي (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) والرحالة المغربي ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ ١٣٧٧م) وكلها تضم معلومات مهمة للمشتغلين في حقول النظم والادارة والتاريخ الاقتصادي للدولة العربية الاسلامية، وفي حقيقة الأمر الواقع ان هناك مادة تاريخية مهمة في المصادر الجغرافية متنوعة في طبيعتها تعود بنفع كبير للمختصين في الدراسات التاريخية الاسلامية فهي تجهز المؤرخ بمعلومات ذات قيمة في ضبط الاسماء والتعابير التاريخية المختلفة وتساعد على التأكد من محتوى بعض الروايات التاريخية المشكوك في صحتها، وفوق كل شيء تعيينه في الحصول على معلومات اصيلة وقيمة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ضمن الفترة التي تهتم بوصفها هذه المصادر.

- الاجتماع:

أما الاجتماع ، أو السوسولوجي (Sociology) ، فهو علم الانسان والمجتمع وهو الأساس في مجموعة العلوم الاجتماعية والكثير من انصاره ظلوا لا يقرون بعلاقة التاريخ بالعلوم الاجتماعية وانتمائته اليها، كما ان لعلم الاجتماع طرائقه ونظرياته وقوانينه في تفسير الظواهر الاجتماعية وتحديد انماطها وتياراتها والقيم السلوكية المرتبطة بها ،كل ذلك ضمن المفاهيم الاجتماعية السائدة لدن السوسولوجي والتاريخ من جهته ظل يصر في ماهيته كعلم مهتم بدراسة الماضي ،وفي انتمائه الى مجموعة العلوم الاجتماعية، وفي تثبيت وضعه كفرع من فروعها وظل أتباعه يقللون من قيمة الاعتراضات التي يثيرها السوسولوجيون ضد فحوى التاريخ وحقيقته، وفي الطعن بالبراهين التي يستعملونها في حالات الاحكام والتصميمات العامة لمسألة مسيرة التاريخ، وإذا كان الاجتماع يقوم على المشاهدة والتجربة، ويحاول تنظيم الأحداث الحاضرة والماضية في نظريات وقوانين وصفية أو تحليلية ،فأن التاريخ يتدارس الماضي ويهتم بمتابعة الحوادث الفردية الماضية، من وجهة ترابطها الزمني على أساس من النصوص التي تكون مادته ،دون وجود مكان للمشاهدة والتجربة فيه، ولكن مجال التعاون بينهما كان واسعاً ايضاً، فإذا كان المؤرخ مهتماً بجمع الحقائق التاريخية وهيكلها فإنه يستفاد كذلك من التأشير الاجتماعية في تحديد مشاكل المجتمع في الماضي ومفاهيمه ونوع التيارات التي تتحكم فيه وفي هذا ينتفع المؤرخ بلا شك من النظريات المتوفرة عن الكائن الحي والمجتمع والتغيرات التي تصيب المجتمعات ، وكذلك ينتفع من الطريقة السوسولوجية وعناصرها في دراسة التاريخ وكتابته حيث نجد مدرسة من المؤرخين السوسولوجيين متأثرة جدا بالقانون السوسولوجي وبالمفاهيم السوسولوجية السائدة، ساهم عدد من اتباعها مؤرخي الاستشراق في تطوير الدراسات التاريخية عن الاسلام والتراث وفي تصحيح كثير من التفاسير والاختفاء الشائعة بين المستشرقين انفسهم حوله.

وأحسن من درس التاريخ من وجهة علاقته بالمجتمع وأحسن من حدد العناصر الخاصة به من وجهة نظر المؤرخ هو العلامة التونسي ابن خلدون، الذي وضع الاسس الخاصة بعلم العمران والذي توصل اليه كعلم مساعد (ومستنبط) لدراسة التاريخ، ويرى عزيز العظمة على خلاف راي كل الباحثين السابقين أن هذا العلم المستنبط النشأة يشكله ويكونه علم التاريخ وليس متساوياً او ذي صلة بعلم الاجتماع كما يفترض الباحثون ويحملون ابن خلدون ازره وان التاريخ طبقاً لرأى ابن خلدون "هو سرد أخبار العمران المنظم".

الاقتصاد:

وكلمة قصيرة في الاقتصاد كأحد العلوم المساعدة للمؤرخ اذ يشكل أحد اهتمامات المؤرخ وجزءاً من خلفيته وثقافته للعامة، وما يرد عن طريق التاريخ الاقتصادي يعد نموذجاً للعلاقة

القائمة بين التاريخ والاقتصاد من خلال محور العلاقات الاجتماعية المترابطة بينهما، فالإقتصاد ينعكس على دراسة التاريخ من ناحية تقسيمه الى فترات ومراحل حسب نمط الانتاج البشري، في ضوء تقسيم ماركس للتاريخ ، وينعكس أيضاً في مسألة التعابير التي تتحول الى براهن لتقرير سير المجتمعات ويهتم المؤرخ "برصد التطورات والتيارات الاقتصادية التي تقع عبر الزمن الا انه ليس من السهل، رصد هذه التقلبات في ضوء غياب معايير نظرية لمفهوم وطبيعة الاقتصاد الاسلامي للدولة العربية الاسلامية.